طقوس العائلة

قصة بقلم موسى كريدي

ـ هل ستخف الخيول ؟
ـ من هنا تبدأ حركتها .
ـ متـــى ؟
ـ في اول الليل .

كانا في نقطة لتجمع الخيول ، ودخلا معا خلال الحركة ووجدا انهما بسبيل وضع غير مألوف بدأ يتشكل ببطء عبـــر اصوات تضج ومصابيح صغيرة مثبتة في بضعة مثلثات خشبية مرفوعة ينتظمها سلك كهربائي طويل .

ـ هل تهـدأ ؟
ـ انها لا تهدأ . ان اصداءها المتبقية فـــي الريح تظـــل تخاصم اسماعنا حتى في النوم . اننا نحلم بها . فالليل هنا وخلال هذه الايام لا حدود له ، ابيض رغم سواد منتشر ودافر في امكنة ضاجة تكـــاد ان تحل في الرؤوس ..
ـ والرؤوس ؟
ـ تهرب بينما يسيل الدم خيوطا غليظة .
ـ لم اشهدها من قبل .
ـ تعال معي .

وسارا معا . وحولهما كانت بعض الرؤوس حليقة تلمـــع تحت الاضواء الساقطة من مصابيح سيارة تمر بطيئة وسط المراثي والشموع المتوقدة وقد صفت على شكل دائري وهي محمولة فوق اكتاف مئات من الصبيان .

ـ والسيوف اريد ان اراها .
ـ ستراها .
ـ متى تشرع عادة ؟
ـ في هذا الليل .

بعضهم في الاكفان البيضاء . واخرون من غير ما اكفان . يضربون فيجري الدم خلال الثياب ، والمعاطف . وفوق الاكتاف غير انه يتخثـر فيلمع غامقا لكنه يتجدد في اليوم الثاني عبر الليل حيث يسيل احمـر مائلا للسواد ويسيل كالقيح من اعلى الرأس حتى مهبط القدمين ثم انه يختلط بنثار التراب وقد عفرته الارجل فاحالت لونه فوق ارض ضمت بنتن قديم ، وقذارة دائمة . واذ تفوص اقدام اخرى حافية في طبقات الوحل المنتشر كالسواد ، يجري الدم بشكل اغزر .

ـ هل يعني اننا سنقف هنا طويلا ؟
ـ لا .

ومشيا متمهلين . وكفا عن الكلام وحين انعطفا نحو زقاق صغيـــر توقفا قليلا .. على يسارهما بركة دم . البركة صغيرة جدا . معتمـــة جدا . ولكنها رغم ذلك فقد بدت حمراء ، وعلى اليمين طفل يتبول . كان يبرك هادئا وعيناه باتجاه الرجلين . انسابت الميـــاه الساخنـــة متعرجة . وصب البول في البركة . نهض الطفل وبصق احدهما . ولم يتكلما . سل الطفل خنجره ولوح به في الهواء ، ثم ما لبث ان غـــاب عنهما فانعطفا صامتين . وصارا قبالة شارع عريض ورأيا متسولا . كان المتسول ينبش في فتات الطين ، وبقايا الروث بحثا عن اعقاب سكاير وكان يجمع التبغ ويلم بقاياه منثرا ما تجمع في راحته . وكان لديـــه كيس قذر بدا طويلا مرقعا داكن اللون . واذ بدا علق الدم في نثـــار التبغ بدت يدا المتسول خشنتين سوداوين .

ـ اريد ان ارجع .
ـ ولكنك لم تر شيئا .
ـ لقد بدأت الحمى تضايقني .
ـ الا تريد ان ترى السيوف ، والناس ، و ..
ـ لا اريد ان ارى احدا .

كانا معا واقنعه على البقاء فعدل عن رأيه وكان الضيف يرى المدينة لاول مرة وقد كان قبل هذا الوقت يود لو يرى بعينيه .. يرى ما يحدث عادة . لذا قرر ان يزورها في الليل متخذا له مكانا اراد ان يكون ممـا تراه اعماقه وهي تمس نبض الاشياء المرئية وكم كان يود لو تتحول هذه الاصوات الى شواهد يقرؤها الناس .. وجلسا في رقعة مـــا لم تكن لتبعد عن حشود الناس ولن تبعد عما يحدث كالعادة ، وكل عـــام .. وجلسا داخل عقل الفياه يتركب فوق آلاف الاجساد ، وراحت الاكتاف تلتف وتلتف وتتصل بقوة وهي تفد من بعيد ، ومن متفرعات الشوارع ، وفوهات الاسواق . تعالى الصياح وهبت الريح فحركت ما تدلى مـــن عباءات النساء وهن ينذرعن على طول الشرفات فـي الابنية المتلاصقة . وشاهدا بعض الازقة حمراء بسبب تصاعد لهب المشاعـــل . واخـــذا يرقبان في صمت ذبذبات العصب ، ورعشات الدم قبل ان يتدفق .

***

في زاوية تقع امام زقاق آخر وقفا عند ردهة غامضة هي جزء مـــن الزاوية ومر منهما شاب مجنون . كان اسمر ، حليق الرأس . ذا لحية صغيرة . وكانت عيناه الداكنتان لا تنبئان عن ايما شيء . كان ثوبـــه داكنا . دمغيا متهرئا من اسفل ، ومشقوقا شقا واضحا مـــن الوسط ، وكان شعر جسده وفخذيه كثيفا . لقد بدا هـــذا رغم الخرقة التـــي شدها كحزام حول بطنه . كان المجنون يقفز قفزات غير منتظمة لم تكن لتتوافق ابدا مع ضربات الصنوج التي راحت تصاحبها الطبول وهـــي تدق بعنف . وسحب الرجل ضيفه واختفيا معا . وشملهما هدوء مؤقت وكانا متلاصقين خلف جدار شبه مائل . بدا الجدار مثلثا ومائلا باتجاه رأسيهما .

ـ أهو شرير فظيع ؟
ـ لا على العكس .
ـ أتعرفـه ؟
ـ نعم انه هادىء جدا .
ـ فلماذا حبستنا اذن ؟
ـ ساوضح لك .

زحفت امرأة داخل الزقاق وكان قاعه غامضا ولم تر احدا غير ان صوت قدميها بدأ يقترب ومن بعيد بدأ المجنون شبحا في آخر الزقاق وكانت المرأة مهووسة تتلفت يمنة ويسرة . واقتربت اكثر . كانت عتبة بيتها تنحدر قليلا وكانت معظم البيوت في الزقاق تغـــور تحت الارض وتبدو اقبية غير منظورة تتخفى في عتمة بطول قامة الرجل وكان بعضها يفور بضعة امتار . وكان الباب المكون غالبا من نصفين لا يبدو الا ثلثه للعيان . رفعت المرأة ذراعها وامسكت بالمجنون وسحبته بقوة وتدحرج هذا ، وفي لحظة غارا معا تحت الارض .

ـ لم افهم شيئا .

ـ سنفهم .
ـ ما هذا ؟
ـ هذه المرأة ارأيتها ؟
ـ نعم رأيتها .
ـ لقد اعتادت ان تستأثر بالمجنون .
ـ تعرفها ؟
ـ اعرفها .
ـ متزوجة ؟
ـ نعم .
ـ لماذا هي تفعل ذلك .
ـ لا ادري .
ـ الم تسمع عنها شيئا ؟
ـ كل ما اعرفه انها تفعل ذلك في غياب زوجها .
ـ واين زوجها الآن ؟
ـ انه فيما اعتقد يحمل سيفه .

***

لم يدر لماذا كان يراها واضحة مثل السيف اذ يصعد في الريح او ينزل فوق الرأس . ابتعدا عن الظلمة ، وصارا في الضوء ، ورأيا مستطيلات من الرؤوس وهي متراصة في صفوف طويلة وكاد الضيف يلمسها وهي في قمة تموجها ، واحمرارها ، وتقلصها . وكانت الحمى قد باغتته من جديد ، واحس بجسده ثقيلا ، والتفت . فرن الصوت ، والتمع في الفضاء سيف . سمعا رنته حين يهبط بقوة حتى لتلامس حافته حافة الرأس الحليق .

ـ هذا رأس آخر .

كان صاحبه ضخما كتيس جبلي ، وكان شارباه يتناسبان مع ضخامته ، وكان لصوته نبرة خشنة . ولمع رأسه في الضوء . وسال خيطان من الدم ، وانسابا بهدوء وقد عبرا جبهته العريضة . وكان خط منهما قد اخترق حاجبه الايمن ومر باجفانه متشابكا في اهداب سوداء طويلة . وبدت عينه اليمنى نصف المفتوحة تحت تكاثف الدم غير طبيعية حتى لكأن سهما قد اخترقها لتوه .

***

وضع الضيف اوراقه في محفظته الرمادية ، وانغلق وجهه وبدا متعبا . وترامى بصره خارج الطقس . خارج طقوس العائلة عبر الليل ، سمع اشياء اخرى سرعان ما زاحمته وكانت اصواتا متميزة احسها تدق في داخله بعنف . وكان صوت لدم آخر انبجس فجأة وراءه يسيل امام عينيه ، في حين لامست جبهته رملا ابيض . وكان ثمة ظل دائري استطاع ان يحقي فيه من الرصاص ، ومسحت نظراته ظلا آخر كان يسقط فوق اشجار محاصرة . حوصرت قربه تماما .. الاخرون قرب التل يكاد يحس بانفاسهم ورآهم يحتمون وكان بعضهم يحتمي خلف الاشجار . وفي اللحظة سمع نزيفا . سمعه يغرغر ، ويتطامن بهدوء مكونا بركة دم . نزت البركة في الرمل الابيض وكان الرمل يجس مقدم رأسه .. وغمره فيض ، ملتهب ، متموج من يقظة لم يكن يحلم بها من قبل كانت قد هبطت عليه من بعيد وكان رأسه حرا ، مطلق الحركة في المدى الواسع بينما ظلت عيناه متعلقتين هنالك ، مشبوحتين ، ترمقان في خجل مشارف الاردن ، وتعبران حشدا هائلا تجمع للتو . واذ يمر الاصيل ، وتنحدر الشمس فلا يرى غير تلال بعيدة وحشدا هائلا :

ـ انهم الآن ثلاثون الفا .
ـ هذا حشد ضخم .
ـ ترى ماذا يحمل هؤلاء ؟
ـ لا ادري .. لا ادري .
ـ ولكنني اعرف تماما .
ـ ماذا تعرف ؟

وتابع الضيف :

ـ اعرف انهم لا يحملون السيوف ولا الرماح .
ـ هل اذيع النبأ ؟
ـ نعم .
ـ متى ؟
ـ قبل لحظات .

(صمت) ثم (وقع اقدام) .. ايقاعات موحدة . مجللة بعويل النساء الخفرات وقد تجمعن كالسيوف وتحشرج في اصواتهن طائر رمادي ، وكانت حناجرهن تتلون بين الحين والآخر ببكاء مخنوق يجري متباطئا كعربة نواح طائرة في الحلم . كان هذا يجري في توتر ملحوظ لحظة التجمع الهائل .

ماذا عن هؤلاء الخمسة والثلاثين الفا (ارتفع العدد) كيف تجمعوا ؟ اتعجب ؟ ولم العجب ؟ فالاقدام ما تزال حولك تتزاحم وتشتبك فتضيق المدينة بأسرها حيث ترتفع السيوف بيضاء تلمع في الضوء ثم تهبط حادة فوق الرأس . انها تطير وهي على اية حال لا تطوح بالرأس غير انها تقيم خطوطا صعبة التمييز .

ـ دم .. دم . أليس كذلك ؟
ـ وماذا تريد ؟

وتراءت له البركتان في الداخل ، وفي الخارج . كلتاهما بركتان ليس بينهما غير منسبط من الرمل الابيض . يتحرك في لحظة واحدة ويموج ، وتغمره الدماء .

ـ لا اريد شيئا ولكنني اعرف .
ـ تعرف ماذا ؟

وتابع الرجل :

ـ اعرف ان هذا دم .
ـ ومن قال لك غير هذا ؟
ـ ولكنه يختلط . هنا يختلط . يختلط بالبول والخراء الا تفهم ؟

واراد ان يكمل ما بدأه . وهنا قاطعهما النبأ . لقد اذيع نبأ آخر فازرق جلدهما ، وخجلا معا وصارا مأخوذين ثم صار الحشد اربعين الفا (لا شك انهم لا يحملون السيوف ولا الرماح) رنت العبارة فاخفاها في صدره ولم يبح بها هذه المرة وبانت البركتان . احداهما في الداخل ، والاخرى في الخارج .

***

رأيا ايضا اطفالا في اكفان بيضاء . التمعت عيونهم . كانوا قادمين في جوقة من داخل الزقاق . وكانوا في لغط وهوس . وتداخلت اصواتهم فبدت مبهمة وصاروا في الشارع ولم يكونوا ملطخين بدم غير انهم كانوا فرحين وقد تدافعوا وما لبثوا هكذا بضع دقائق حتى غابوا في الزحام .

ورأيا بعد هذا جثة . كانت تتمدد قرب دكة مثلمة الاطراف ، مستطيلة ازاءها قشور ، وبقع بلون القيح وبصاق ، وخرق . انها جثة لشاب وجد له مكانا فارخى جسده ، مستلقيا على ظهره ، وقد شبك اصابع يديه وجعلهما تحت رأسه تماما وكان رأسه ملفعا بشاش ابيض ، وكمادات بدت حمراء وتكاد لا تلمح قسمات وجهه بسبب تشابك واختلاط خيوط الدم وهي تظلل عينيه . وتساءل الرجل الضيف واراد أن يكتب عبارة ولكن صاحبه فاجأه اذ قال له ان هذه الجثة حية ولم يصدق ولكنه تنحنح قليلا وبصق على الارض حين رأى عيني الشاب وهما تنفتحان قليلا باتجاه الظلمة النصفية التي تشكلت جهة الرأس .

ـ ان رأسي يؤلمني .
ـ من الافضل ان تنام بعض الوقت .
ـ ولكنني لا استطيع فالاصوات تحاصر المدينة .
ـ ما دام الامر كذلك فتعال معي . اتبعني .

وتبعه فوصلا محلا صغيرا واستراحا مقتعدين حصيرا ، واسندا ظهريهما وقد انتصبت دلال القهوة السوداء امامهما . كانت وسط النار بينما اتيح للريح ان تتسرب اليهما مارة بالجمر فيتصاعد لهب ازرق . وبدا لهما صاحب المحل كحارس ليلي . فعيناه الصغيرتان كانتا تتحركان

ـ التتمة على الصفحة ٥٨ ـ

طقوس العائلة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٢ ـ

افقيا . واما رأسه الملفع بقطعة قماش ابيض فقد بدا حذرا واذ تتحرك عيناه هكذا تحركت اليدان ايضا وانهمكتا في صب القهوة للرجلين . وكان يصب القهوة بمهارة دون ان يتكلم . كانت الريح هذه اللحظة تهب رخية بعض الشيء . وكانت رائحة البن تملا المكان . وراح الضيف يرشف القهوة ببطء . وشردت عيناه ، وخف جسده . وتباعد . وصار في الخارج . قرب تل يجاور اشجارا محاصرة . رأى بركة دم وهي تنط في الرمل ، وكان يمد يديه بينما يمر الاخرون . مات بعضهم ، وكان لا بد ان يموتوا . ثمة تغطية لانسحاب جرت قربه بعد اشتباك دموي . ذلك ما حصل بالفعل فهل يستطيع ان ينسى ولكنه لا يتذكر كل شيء خلال تكاثف الدخان غير انه يتذكر تماما وجه البركة فهي على مقربة منه. كانت تمثل امامه ، وكان الدخان في الاعالي ... وتحركت عيناه ، واصطدمتا فجاة برأس .. اطل الرأس ، وبدا غزير الدم . ما الحكاية ؟

ـ امي ...

سمع صاحبه : ـ وماذا بها .

ـ هه مسكينة امي .

ـ وهز رأسه : ـ لقد كانت تغسل .

ـ تغسل ماذا ؟

ـ لقد كانت تغسل الكفن .

كانا يتحدثان بهمس ، وتابع الرجل :

انه كفن خالي . اخوها يضرب بالسيف وعادته ان يضرب رأسه بالسيف حتى ليصبح كفنه الابيض قطعة حمراء قانية وهو عنيد ، كاي بطل لا يلقى بسيفه حتى بعد ان يرى الناس مياه الدم وهي تتساقط من رأسه بغزارة ، واذ يبس الدم يتحول لونه الى اسود ، فاقع . ثم يجيء بكفنه ويعطيه لاخته ويقول لها اغسليه .. وتمسك أمي بالكفن وتقول : ـ ما اغزر هذا الدم !

انني اتذكر انها كانت تضع الكفن في (الطشت) وكان الطشت صدئا ، مخضر الحواشي ، مستديرا يقعد قرب حنفية ماء كانت تطل معقوفة فتحتها باتجاه بالوعة الدار . وتصب الماء الملون . كنت ارقب امي وكان لون وجهي يتغير بينما يتموج الكفن في الماء الساخن وكان يحمر .. وكانت يدا أمي تموجان خلال بركة الدم .

قطرت الكفن ، وزال الدم ، امتلا الطشت ، فاض ، افرغته بسرعة . ثم امسكت به ووجهها مغضن ، وعيناها نصف مفتوحتين . واذ تعتلي سطح الدار تعلق الكفن . تنشره فوق حبل مشدود من الجانبين ، وحين تنزل، تفرغ السائل الاحمر وكنت اراه ينساب . وسمعت خريره . لقد رأيته يمتزج . في ظلمة القعر يمتزج هنالك . واذكر اني بصقت ثم قلت لامي بعد انتهاء العملية : ـ لماذا لا يكف عن فعلته هذه ؟

ـ من ؟

ـ اخوك ومن اعني غيره ؟

قلت لها بحدة وكأني اعصف في براءة وجهها :

ـ اتتجاهل لماذا ؟

ـ نعم اني اجهل لماذا ؟

فقالت : ـ اسكت .

فقلت لها على الفور :

ـ لن اسكت .

فقالت بصوت واهن :

ـ ايه ايها الملعون اتريد ان يشبعك ضربا ؟

وسكت وضاق صدري ، واحمرت عيناي ورغم محاولاتي الكثيرة لانسى كل هذا فقد ظلت الصورة تمط حمرتها في داخلي ، وتتسع وظلت اصداؤها تضايقني كثيرا وتلاحقني حتى في المنام واذكر انني خرجت ساعتها وكنت الهث كالكلب واشتم الناس جميعا .

***

نهضا من مكانهما ، ونثر الضيف بعض النقود وكان صاحب القهوة يخفي عنهما ضيقه مديرا وجهه ورغم ذلك فقد شاهداه يتمتم وحده فلم يفهما شيئا . وخرجا صامتين . ومرا بزقاق آخر يفضي الى مدخل اكبر اسواق المدينة وفي الطريق قال الرجل لضيفه :

ـ ارأيت الرجل ؟

ـ رأيته . ان سحنته كئيبة جدا .

ـ انه حزين ..

ـ لقد كان يتمتم وحده .

ـ لا لم يكن يتمتم .

ـ بل ماذا كان يدور في ذهنه ساعة خرجنا ؟

ـ لقد كان يسبنا .

وخلال ذلك مر ثلاثة اشخاص تعالت اصواتهم في حماسة ظاهرة كانوا يتحدثون عن بطولة اخر عزاء اعتاد ان يجعل مقدمة رأسه تطوف حول الضريح بينما تظل مؤخرته تزحف ببطء وهي فيهدير الشارع .

قال الرجل لزميله : ـ أخف هذا الجهاز .

ـ لماذا الا تريد ان تسمع ؟

ـ الا تدري انهم لو شاهدوه لقطعوا رأسك بالسيف .

ـ ولكنني لم افعل ما يسيء ..

ـ نعم انه لا يجوز لك ان تسمع شيئا وانت في حرم الطقس .

ـ أي حرم ؟ نحن في الشارع .

(صمت ثم وقع اقدام لحصان ، ضخم ، بني اللون ، عار تماما الا من عرف مسدل ، وسيور امامية تجاذبتها يدا فارس يرتدي كفنا ابيض . في وسط حزام . وفي طرف الحزام علق سيف مغمد بدا يتأرجح يسارا جهة الخاصرة) .

***

اغبرت السماء بعض الشيء ، وهبت ريح باردة ، ودومت قليلا غير انها ما لبثت حتى تكسرت قربهما وكانا ما يزالان يتمشيان. ويضحكان وبصقا عند مرتفع ترابي ينحدر بطيئا نحو مقبرة المدينة في الجانب الاخر ولم يتوغلا فيها فالظلمة تكتنفها تماما والطريق اليها بعيد ورجعا ، وكانت اقدامهما ما تزال تجوس أرضا رملية رغم أعمدة الاسمنت التي ظلت جدرانها السوداء ترجع صدى اصوات الطبول ، وضربات الصنوج المتجمعة في اضخم جوقة اشتعلت بالحمى وكادوا يلمسانها ، وراحت الجوقة تشعل حماها في صدور الخيل وقد اخرجت من حظائرها لتتصدر موكب الحشد وهي خاشعة . ذاهلة، وتعثرت في مشيها فالزحام شديد جدا ، والاضواء ساطعة ، ولم تكن تعرف ما يفعل بها سائسوها غير انها بدت تهتز ، وتجفل امام تفصد النار وقد شبت فوق رؤوس مئات المشاعل وهي تمر في امتداد طولي ينسرح بين منعطفات الازقة وفوهات اسواقها الاهلة بالبشر وبالحمى ، وبالدخان ايضا . وضحكا وسط الظلمة داخل الحشد وكان الخوف طائرا مس اهدابهما مسا رقيقا ولكنهما تشجعا في النظر عبر الضجة الى الوجوه المذبوحة خلال الاضواء والاصوات المتدلية والمتراكبة غير انهما خافا ان يكونا خارجين على مألوف الطقس القائم بينهما فتلمسا رأسيهما وتحسساه فلم يجدا أثرا ما لدم كان من الممكن وببساطة ان يسيل .

وفي الزحام . التفت الناس فجاة . وتجمعوا كتلة واحدة . ففي الوسط ثمة اربعة اشخاص كانوا يتحلقون حول بطل عنيد لا يقهر ولا يريد ان يتنازل . انه يصر على الضرب . ولن يلقي بسيفه حتى يصير دما يريد ان يراه متوهجا امام دهشة عريضة ستخطر فوق كل الشفاه والعيون . وخصوصا عيون النساء وهن يطلقن الصرخات الزاعقة بين ايقاع الطبول ، وضربات الصنوج ويرى خلال ذلك الدم وهو يتحور من الرأس . ومن خلال الشعر ايضا ..وحاول الرجال الاربعة ان ينتزعوا سيفه :

فقال الاول : يا عزيزي يكفي .. يكفي .
وتمتم هذا واختلجت عيناه بالدم .
فقال الثاني : الا تكف عن الضرب ؟
فكانت الاجابة ضربة سيف اشد .
وهدد الثالث قائلا : ـ اسمع يا هذا ان لم تلق بسيفك فسناخذه منك بالقوة .
وراحت يمناه تصعد السيف وتهزه فوق خطوط الدم .
فقال الرابع في يأس : ـ اتركوه يقتل نفسه .
وقال الضيف للرجل :
ـ أيكون هذا زوج المرأة صاحبة المجنون ؟
فقال الرجل :
ـ ربمـــا .
ولوح البطل بالسيف مرة اخرى فزعقت النساء وابتعد الرجلان والفيا نفسيهما وسط زحام آخر ، ومرت منهما رؤوس بلا سيوف . ولكن السيف ارتفع فوقمدى الرؤوس الباقية وفيزحام (الصالة الاخرى) وجد نفسه فجأة . ثمة عيون . نظراتها تتجه نحو نقطة الضوء المسلطة فوق جسد البطل العاري الا من سيفه . واستقر الناس . وترقبوا اللحظة أية لحظة ؟ انها لحظة تجسد البطولة حيث ينفرط الضحايا كحبات المسبحةتحت قدمي البطللذا فقد هدر صوته في الهواء ، وارتفع سيفه. وسكن الجميع .كتموا انفاسهم ولم يتحركوا . ثم هوى السيف . وارتفع مثل ما هوى . وتكرر هذا مرات ومرات ولا شيء . ويئس الناس وقبل أن يتفرقوا قال واحد منهم (ان دون كيشوت لا يجيد التمثيل) واسدل الستار .

***

توالت المواكب ، وخفقت الاعلام والاصوات ما زالت في ذروة توترها . اما السيوف فما تزال مشرعة . كانا يسمعان ويعيان كل شيء، ويرقبان كل حركة ، وكان ليل السيوف لا يهدأ . ولكن هل بوسعهما والحالة هذه ان يفلتا من قبضة السيوف وان يدعا طقوس العائلة ؟
ـ الى اين يمكنك الذهاب الان ؟
فقال الضيف :
ـ في هذه الساعة لا ادري هل ثمة مكان ؟
ـ هناك ضوء آخر .
واشار بيديه ولم يفهم ضيفه فتساءل :
ـ ماذا تعني ؟
ـ هناك شلة اصدقاء .
واقتربا معا ودخلا زقاقا خرافيا . اقتربا من احد الابواب وحال اقترابهما سمعا صوتا فدفعا الباب فانفتح ولم يستقبلهما احد غير أن الرائحة تسربت اليهما . وكان القبو معتما الا من اضواء باهتة . كانت الشلة تصخب في الداخل والمكان يغور عميقا تحت الارض .
ـ لقد جذبتها الى جانبي وكان شعرها نصف المسدل يغمر نصف وجهي تحت عتمة المساء .
فقال الثاني :
ـ لقد كان الطقس دافئا والاضواء تومض من بعيد .
فانبرى الثالث :
ـ انت تكذب دائمـا .
فرد عليـه :
ـ اتريد ان تقول انك عريتها تماما ؟
فقال الرابع :
ـ لم اكن في حالة سكر ساعة تعرت .
فقال الاخر :
ـ لا ، بل قل لم اكن كذلك ساعة اندلقت الكأس فوق ...
فقال الاول :
ـ يا لكم من كذابين صغار .
فقال الثاني :
ـ انت اكبرنا اذن فانت اكذبنا .
وصفعه قائلا :
اسمعوا يا ...
فصمت الجميع ، وانتبهوا لنداء سيدهم ولكن هذا تمايل قليلا وكاد يسقط على الارض لولا ان احدهم ارجعه الى مكانه فقال لهم ورأسه يتمايل :
ـ اسمعوا ؟
فقال الجميع :
ـ نحن نسمع .
وصاح بقوة :
ـ حاضرون ؟
فقالوا بصوت واحد :
ـ حاضرون ..
ـ والان قولوا ...
ـ ماذا نقول يا حضرة السلطان ؟
ـ هه . قولوا (موافقون) .
فقال الجميع : ـ موافقون .
وبعد لحظة سمعت صرخة .
ـ اسمعوا .. انني ...
التفت الضيف وقال لصديقه :
ـ الا نخرج من هذا المكان ؟
ـ سنخرج .
ـ عجل قبل ان يرانا احد .
فوافق الرجل وقبل ان يخرجا سمعا اصواتا اخرى كانت تنبثق من داخل العتمة :
قال الاول : ـ نحن هنا اليس كذلك ؟
فقال الثاني : ـ كلا يا سيدي نحن هنا في الزمان .
فقال الثالث : ـ ماذا تعني انحن فوق ام تحت ؟
فقال الرابع : ـ كلكم اغبيـاء .
فقال واحد منهم : ـ ومن ادراك ؟ انك لعراف كبير .
فقال الاول وهو يتحدى الشخص الرابع :
ـ يبدو ـ وأكمل ـ انك تتحدث عن نفسك .
ـ انـا ؟
ـ نعـم .
ـ انا لا اتحدث عن نفسي .
ـ بل عمن تتحدث ؟
ـ انني اتحدث دائما عن ...
ـ عن ماذا ؟
ـ هه .. عن شيء كبير لا تدركه ابدا .
ـ كبير ؟
(ضحـك ...)
ـ واكبر من رؤوسكم جميعا .
(ضحك ...)
ـ واكبر من رأسك .
واختلط الصخب .. خرج الرجلان كشبحين يعبران ممر الزقاق الضيق وخلفا وراءهما الظلمة والاصوات واتجها نحو الزحمة فرأياها تشتد رغم الليل الزاحف نحو الضوء ، وكبرت حولهما الاصوات بينما ظلت الاجساد تتلاصق اكثر فاكثر وتنمو . واذ يجاور موكب موكبا آخر يتصادمان كشراتين كبيرتين.الضغط على اشده ، والسيوف عارية، وهامات الرجال تتوزع في مواكب تفد من هنا ، وهنالك وتتجمع في الساحات ، والشوارع ، ومداخل الاسواق . وهدر موكب اخر وفي خيلاء شق الزحام وكانت الخناجر ما تزال تطوق خصورهم وكانوا في ركض متواصل لا يهدأ .. وقال الضيف لصديقه :
ـ ماذا ترى ؟

أهل الكهف

أكفان الصمت معلقة فوق الجدران
والظلمة سدت باب الكهف
لا أحد يعرف
هل مرت سنة أم ألف
فالزمن توقف
أحياء لكن مدفونون
واذا بالزلزال يهز جدار الكهف
اعصار بالخارج لا يتوقف
فتحوا اعينهم
لكن لم يعرف أحد كيف يكلم صاحبه
صدئت كل الكلمات
مات الحرف
وابتلع الصمت الكهف
قالوا من غير كلام
نبغي خبز الايام
لكن لم يجرؤ أحد أن يخرج
خوفا من « دقيانوس »
ومشانقة المنصوبة في الطرقات
ومضت لحظات
وانتشرت جثث الكلمات
ثم مضى أهل الكهف
مسبحة في الكف
وعلى الرأس عمامه
وعلى الاصدغ وشم حمامه
قصدوا السوق حيارى
غرباء محزونين
كي يبتاعوا خبزا
لكن ليس هنالك سوق
ليس هنالك خبازون
ما عرفوا حتى ضوء الشمس
لم تبصر أعينهم طرقات
لا شيء حواليهم غير الآلات
تاهوا وسط ضجيج العجلات
ـ ماذا .. أوهذا عصر الآلات ؟
وتساءل واحدهم وهو يقلب بين يديه
دراهم ذهبية
فتفجر صوت تخنقه الضحكات
من خلف الآلات : ـ عجبا ما زالت صورة فرعون
على العملات الصدئه
يـا للـه
ماذا تبغون ؟
فدراهمكم ما عادت تصلح في هذي الايام
ـ نبغي خبـزا
ـ لا خبز لكم في هذا العصر
حتى يخلع كل منكم ثوبه
ويمد يديه الى الافق
لينزع فجره
يـا أهل الكهف
أفيقوا يا أهل الكهف

الفيوم (ج. ع. م)

صلاح عدس

ـ انا مثلك ارى ما تراه .
ـ ولكنني لا ارى بشرا .
ـ بل ماذا ترى ؟
ـ اني ارى قبائل .. قبائل تتجمع .
ـ هذا صحيح فالسيوف مشهرة .
ـ انها تلمع في الصخب وهي فضية .
وقال الرجل : ـ ثمة صهيل .. ثمة قتال . لنبتعد .
ـ اي . نعم . لنبتعد .
ودخلا شارعا اقل ازدحاما . اصفر وجه الضيف وبدا متعبا اكثر من ذي قبل . واحس بصداع شديد يدهم رأسه فجأة . وخلال الضجة سمعا شخصين يتحدثان . واستغربا .
قال الاول : لقد تحشدوا ألم تسمع بهذا ؟
فقال الثاني : بلى سمعت هذا قبل ساعات .
فقال الاول : الان بلغوا خمسين ألفا .
فقال الثاني : انا اقدر اكثر .

***

ارتفعت اصوات (اليبو) وبان لهب المشاعل في لمعان السيوف وهي تعلو وتهبط في حركة ينتظمها بين الحين والاخر صوت لبوق ضخم اعتلى صاحبه مكانا عاليا بحيث صار يشرف على الرؤوس المحتشدة في خطوط طويلة وهو لا يصوت الا حين يتلقى اشارة تبديها ذراع ثم سرعان ما تهبط ضاربة ضربا موقعا فوق طبل جلدي ، مضلع الشكل ترافقه طبول كثيرة ، وصنوج برنزية اللون .
استمر هذا فترة حتى فوجيء الزحام بصوت نافذ . انه صوت نقالة الاسعاف . واذ تسكن عجلاتها ، وتستقر يهدأ جانب من الصخب وتسمر الناس في امكنهم واتجهت رؤوسهم نحو مؤخرة السيارة البيضاء. وكان لها من الخلف بابان انفتحا في الحال ، وشوهدت ثلاث (سديات) تحمل ثلاث جثث فوق اكتاف ستة اشخاص كل اثنين يحملان جثة . وكان لحاملي السديات تقاطيع حادة ، مغضنة بعض الشيء واعتمرت رؤوسهم باكفان بدت من خلال الدم يابسة وكانت ذات حمرة متخثرة تتسرب منها رائحة غريبة .
قال الضيف : ـ اني اشم رائحة غير مألوفة .
فقال الرجل : ـ ولكننا نألفها .
ـ انها مقرفة الى حد فظيع .
ـ انها شبيهة برائحة الموت . انها مسحوق لعظام تحترق .
كان اللغط قد خف . وكانت السماء تلك اللحظة بلون الخريف ومرة ثانية دوى صوت نقالة الاسعاف وتحركت عجلاتها باتجاه المستشفى الواقع في طرف المدينة ، وعاد الصخب كأقوى ما يكون ورجع الرجلان وكانا متقاربين ، يبطآن السير ، وقبل ان يصلا عتبة البيت قال الرجل لضيفه : ـ كان الصوت يأتي من بعيد ... جن .. جن .. جن .
جن .. جن .. جن .
فقال الضيف : ـ انني أسمع .

النجف ـ العراق

موسى كريدي